

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفَهْمُ الصَّحِيحُ لِمَنْهَجِ السَّلَفِ

إِنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليمًا كثيرًا ، نشهد أنه بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حقَّ جهاده حتى أتاه اليقين ، فما ترك خيرًا حتى دلَّ الأمة عليه ولا شرًّا إلا حذَّرها منه ؛ أمَّا بعد :

فأولاً أحیی من يسمع هذا الصَّوت بتحيَّة الإسلام فأقول: السَّلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وأسأل الله تبارك وتعالى أن يُسَدِّدَ لنا ولكم الأقوال والأعمال ، وأن ينفعنا وإياكم ، وأن يرزقنا العلم النَّافع والعمل الصَّالح والرزق الطَّيِّب ، وقد كان عليه الصَّلَاة والسَّلام كما في السُّنن يدعو عقب صلاة الصُّبح بهذا الدُّعاء يقول : ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا ، وَعَمَلًا صَالِحًا -وفي رواية: عَمَلًا مُتَقَبَّلًا - ، وَرِزْقًا طَيِّبًا)) .

وينبغي على المسلم أن يُعنى بمثل هذا الدُّعاء ويهتمَّ به ؛ سؤال الله تبارك وتعالى العلم النَّافع ، والعمل النَّافع : هو المقرَّب إلى الله جلَّ وعلا، وسؤال الله تبارك وتعالى العمل الصَّالح الموصل إلى الجنَّة ، والعمل الصَّالح لا يكون صالحًا إلا إذا بُني على العلم النَّافع ، كذلك سؤال الله تبارك وتعالى الرِّزق الطَّيِّب.

وهنا فائدة مهمَّة في دعاء النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم بهذا الدُّعاء العظيم في بداية النَّهار بعد صلاة الصُّبح ؛ لأنَّ النَّهار هو موطن العمل والطَّلب والكسب والجِد ، واللَّيل هو موطن السَّكن والراحَة ، ففي مُفتتح النَّهار ونهايته يسأل الله تبارك وتعالى هذه الأمور الثلاثة ، وهذا فيه تنبيهٌ للمسلم أنَّ هذه الأمور الثلاثة ينبغي أن يهتمَّ بها من بداية نهاره ومن أوَّل يومه ، يهتم بتحصيل العلم النَّافع ، وتحصيل العمل الصَّالح المتقبَّل، وتحصيل الرِّزق الطَّيِّب الحلال ، ويكون هذا همُّه ووكُّده ونصبه في نهاره كله ، فإذا جاء اللَّيل حمد الله على توفيقه وشكر الله على إنعامه ونام قريح العين ، أطاع الله جلَّ وعلا في يومه، فينبغي أن نختتمَّ بهذا.

موضوع الكلمة -إخواني حفظنا الله وإياكم- هو كما سمعتم:

[الفَهْمُ الصَّحِيحُ لِمَنْهَجِ السَّلَفِ]

وهذا الموضوع موضوع في غاية الأهميَّة ، وينبغي لكل مسلم يريد سعادة نفسه وفوزها وفلاحها وسعادتها في الدنيا والآخرة أن يهتمَّ بفهم هذا الموضوع الفهم الصَّحيح وأن يُعنى بذلك غاية العناية ؛ لأنَّ الأمر والعبرة ليس بمجرد الدعوى ، من يدَّعي الإسلام ولا يُقيمه لا قيمة لدعوته ، ومن يدَّعي السُّنَّة ولا يقيمها لا قيمة لدعوته ، وإِنَّمَا العبرة بالحقائق والأعمال ، ليست العبرة بالدَّعاوى ، كما جاء عن الحسن البصريِّ رحمه الله قال : « ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكنَّ الإيمان ما قر في القلب وصدَّقته الأعمال » ، والله عزَّ وجلَّ يقول : ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يُعْمَلُ سُوءًا يُجْزِيهِ﴾ [النساء: ١٢٣] ، ويقول : ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِيْ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [٥٧]

عمران: ٣١ . فالعبرة هي بالاتباع والافتداء والعمل بطاعة الله جلّ وعلا والتّقرب إليه بما يحبه ويرضاه من صالح الأقوال والأعمال ، وليست العبرة بالدّعاوى.

ومن هنا ينبغي أن نفهم أنّ السّلفية أو السّلف أو الدّعوة السّلفية أو نحو ذلك ليست دعوى يدّعيها المرء لنفسه أو لطائفته أو لجماعته أو لفئة من النّاس ؛ وإنّما هي منهج وطريقة وهدى مستقيم يوصل إلى رضوان الله تبارك وتعالى ، طريقة صحيحة هي أصحّ الطرق وأسلمها وأعلمها وأحكمها ؛ طريقة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه الكرام والتّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدّين.

ولهذا عندما يعرف المسلم السّلف أو السّلفية أو الدّعوة السّلفية ينبغي أن يعرفها المعرفة الصّحيحة السّليمة البعيدة عن التّيّارات الجارفة والفتن الكثيرة المطغية الملّية المبعدة عن طاعة الرّب تبارك وتعالى ، فينتسب إلى السّلفية أو إلى السّلف قولاً وعملاً واعتقاداً ، ظاهراً وباطناً ، سرّاً وعلناً ، ينتسب إليهم بهذه الطّريقة ؛ يأتسي بهم ، يعرف سيرتهم ، يعتقد عقيدتهم ، يتّبع آثارهم ، يقتفي ما هم عليه ، يستن بسنّتهم ، والمرء كما أخبر النّبي صلّى الله عليه وسلّم مع من أحب ، كما يقول شيخ الإسلام : " من كان بهم أشبه كان إليهم أقرب " أي السّلف الصّالح ، ولهذا لا بدّ من فهم منهج السّلف ، والعلم بمعنى أو مفهوم السّلفية ، يتعرّف على المنهج وعلى السّلفية وعلى الطّريقة السّنيّة ، يتعرّف عليها ، يعرف أماراتها ، يتعلّم سماتها وعلاماتها ، يترسّم طريقها ، ثم يسلك هذا الطّريق ؛ فيكون من أهل السّنة ومن السّلف إذا قام بهذا الأمر ، فليست العبرة بالدّعوى ، لا بد من العلم النّافع المؤدّي للعمل الصّالح المقرب إلى الله تبارك وتعالى .

عندنا هنا أمران : سلفيّة أو سلف ، ويقابلها ويضادّها خَلْفِيَّةٌ أو خَلَف ؛ سلفٌ وخلف ، هذان الاسمان ينبغي على المسلم أن يتعرّف إليهما ويعرف معنى كلّ منهما «السّلف ، والخلف» ؛ من السّلف ومن الحقيق بهذا الاسم؟ ومن الخلف ومن الحقيق بهذا الاسم؟

لعلّي أنطلق في توضيح أو بيان ضابط كلّ منهما من خلال حديث عظيم يرويه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، وهو حديث عظيم جدّاً ينبغي لنا أن نتدبّره ، قال ابن مسعود : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ((مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّةٍ قَبْلِي إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَقْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةٌ خَرَدَلٍ)) .

هذا حديثٌ عظيم جدّاً ، ومن خلاله نستطيع أن نستوضح ونتبيّن من السّلف ومن الخلف ؟ أو ما علامة السلف وما علامة الخلف ؟

فقوله : « إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ » ؛ أنا أعتقد أنّ هذا أحسن ضابط لتعريف السّلف أو السّلفيّ ، من كان كذلك فهو السّلفيّ أو الذي على الدّعوة السّلفية وعلى المنهج السّلفي .

وأهل العلم قالوا في تعريف السلفي : بأنه من كان على مثل ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ؛ كما ثبت في حديث الافتراق ولعله يأتي معنا نص الحديث .

بماذا وصفهم عليه الصلاة والسلام في حديثنا هذا ؟ قال: « يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ » ، هاتان صفتان رئيستان لكل سلفي ولكل منتسب للسلف ؛ يأخذ بسنة النبي صلى الله عليه وسلم ويقتدي بأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، صفتان عظيمتان جداً لكل سلفي ، وهما أهم الصفات:

■ الأول: الأخذ بالسنة.

■ والثاني: الاقتداء بالأمر.

١- « الأخذ بالسنة » لهذا فيه إشارة إلى سلامة مصدر التلقي عند السلفي أو المتبع للسلف ، مصدر تلقيه ، منهجه في التلقي هو الأخذ بالسنة ؛ يُنَحِّي الآراء ، يُنَحِّي الأهواء ، يُنَحِّي الأذواق ، يُنَحِّي جميع المصادر التي هي المصادر التي هي مصادر للتلقي عند أهل البدع ، وهي متنوعة وكثيرة جداً ، فهو مصدره في التلقي الأخذ بالسنة. بينما عندما تنظر تتأمل في الطوائف والفرق المختلفة تجد مصادرهم في التلقي متباينة ؛ منهم من مصدره الذوق والوجد ، ومنهم من مصدره المنام أو الإلهام فيما يدعي ، ومنهم من مصدره الكشف ، ومنهم من مصدره العقل ، يعتمد على العقل ، وما يقوله العقل هو المقدم على ما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم ، وإذا تعارض أمران يدل على أحدهما النقل ويدل على الآخر عقله أخذ بما يدل عليه عقله ، ومن المعلوم أن العقول متفاوتة وليست عقلاً واحداً ، فالحق مع عقل من ؟! بهذا ردّ السلف ضمن ردود كثيرة على أهل هذا القول ، بل قال بعض السلف: من لازم قول هؤلاء أن يقول الواحد منهم أشهد أن عقلي رسول الله ، بدل أن يقول أشهد أن محمداً رسول الله ؛ لأن عقله مقدم على قول الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن المصادر أيضاً الإسرائيلية ، والقصص ، والتجارب ، وأشياء كثيرة تجدها في كتب أهل البدع والأهواء.

فأهل السنة ليسوا في شيء من ذلك؛ بل ستمتهم وسبيلهم وطريقتهم الأخذ بالسنة ، ولهذا من أسماء السلفيين أو السلف: « أهل السنة والجماعة » ، سُمُّوا بذلك لهذا ؛ لأنهم يأخذون بسنته عليه الصلاة والسلام ، مصدرهم في التلقي سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهذا منهم إنما كان عملاً بوصيته عليه الصلاة والسلام ، لأنه أخبر أن الأمة ستفترق في الأهواء إلى فرق كثيرة قال: ((عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً)) ، فلما أخبر بأنها ستفترق أوصى للسلامة من هذه الشرور وللوقاية من هذه الآفات بلزوم السنة ومجانبة البدعة فقال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) ، أي فرق وأهواء وطوائف واتجاهات ونحو ذلك ((فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا)) ، ثم أجاب عليه الصلاة والسلام دون أن يُسأل مبيّناً السبيل والمخرج من هذه الأمور فقال : ((فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ)) فأرشد إلى هذا الأمر؛ إلى الأخذ بالسنة ، التمسك بها ، اقتفاء آثار الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ، والبعد عن البدع والأهواء أيًا كان نوعها ومهما كانت صفتها ، يبتعد عنها ويحذرهما غاية الحذر، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يُنَجِّيه من بوائقها وآفاتهما ، ويسأل الله جل وعلا أن يُوفِّقه للزوم السنة .

فهذه إخواني -وفقنا الله وإياكم- صفة بارزة ، بل هي أبرز صفة لأهل السنة أو للسلف هي أخذهم بسنة رسول الله عليه الصلاة والسلام، يبحثون عنها ويسألون عنها ويقرؤون الكتب في البحث عنها وتتبعها ومعرفتها ، ثم ينقادون ويستسلمون ، ولا يقدمون قول أحد على قول رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولا يقدمون رأي أحد على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يتعصبون لقول أي شخص غير قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعتقدون أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويتبعون السنن ويبحثون عنها ويطبّقونها في أنفسهم ، يجتهدون في ذلك ، ويسألون الله تبارك وتعالى أن يعينهم على هذا الأمر ؛ الأخذ بسنته .

٢- الأمر الثاني : هو قوله «وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ» ؛ الاقتداء بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام هذا هو الصفة الثانية العظيمة البارزة لأهل السنة أو للسلف الصالح : الاقتداء بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم.

الأمر الأول الذي هو الأخذ بالسنة هذا يتعلق بالعلم ، والأمر الثاني وهو الاقتداء بأمره يتعلق بالعمل ؛ فأهل السنة يقتدون بالرسول عليه الصلاة والسلام، هو أسوتهم وهو قدوتهم كما قال الله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] ، قدوتهم هو رسول الله عليه الصلاة والسلام يقتدون به ، ينظرون في أعمال النبي صلى الله عليه وسلم ويسألون عن عبادات النبي صلى الله عليه وسلم، عن طاعاته ، قيامه بأمر الله ، يسألون عن صفة صلاته ، صفة حجّه ، صفة ذكره لله جلّ وعلا، ثم يقتدون به. وهذا - ولا ريب - يتطلب العلم بسنة النبي صلى الله عليه وسلم العلم الصحيح وتمييز الصحيح من الضعيف ومعرفة الثابت من غيره ، ثم يقتدي بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام.

وعندما قال: «بأمره» أي بما ثبت أنه من أمره ، فما لم يثبت أنه من أمر الرسول صلى الله عليه وسلم يدعونه ويقتدون بأمره ؛ أي الثابت عنه عليه الصلاة والسلام ، فهذا هدي أهل السنة في الأخلاق والأعمال والعبادات والسلوك ؛ الاقتداء بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، ينظرون في أخلاق النبي يتبعونها في معاملاته، في عباداته، في ذكره، في شؤونه كلها فيقتدون به عليه الصلاة والسلام ، وقد مرّ معنا قول الله جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

إخواني : أدعو نفسي وإياكم إلى الاهتمام بهاتين الصفتين : الأخذ بالسنة ، والاقتداء بأمر الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لنكون ممن اجتبه الله واصطفاه واختاره ليكون من أنصار النبي عليه الصلاة والسلام وأتباعه حقًا ومن المؤتسّين به صدقًا لا دعوى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] .

ثم لما ذكر عليه الصلاة والسلام هاتين الصفتين للحواريين والأصحاب قال: « ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلَفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ » ومعنى قوله: «تخلف» أي تحدث، يحدث بعد هؤلاء الذين يأخذون بالسنة ويقتدون بالأمر يحدث ويوجد خلوف، والخلوف : جمع خلف ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩] ، والخلف هو الخالف بالشر ؛ من يخلف الصحابة في الشر بترك ما هم عليه بالإحداث والابتداع وابتكار الآراء والمناهج والطرق هو خلف ، والذي يتبع

هَـذِي هَؤَـلَاءِ الـذِينَ هُم الصَّحَابَةُ وَيَقْتَدِي بِهَم وَيَسْتَنِّ بِهَم وَهَم مُسْتَنُونَ بِسَنَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هُوَ مِنَ السَّلَفِ .

« ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ » بماذا وَصَفَهُم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؟ وَصَفَهُم بِصِفَتَيْنِ :
قال: « يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ » ؛ هَاتَانِ صِفَتَانِ بِإِزاءِ الصِّفَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ
وهي : الأخذ بالسُّنَّةِ ، والاقْتِدَاءُ بِالْأَمْرِ ، أَمَّا الْخُلُوفُ هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ .

« يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » : هَذَا فِيهِ إِشَارَةٌ وَتَنْبِيهُ إِلَى أَنَّ مِنْ طَرِيقَةِ هَؤَـلَاءِ الْخُلُوفِ كَثْرَةُ الْقَوْلِ وَعَدَمُ الْإِهْتِمَامِ بِالْعَمَلِ .
وَمِنَ الْأَلْقَابِ الَّتِي هِيَ لِقَبٍ لِعَدَدٍ مِنَ الطَّوَائِفِ لِقَبِ " أَهْلِ الْكَلَامِ " ، لِأَنَّ شُغْلَهُمُ الشَّاغلُ هُوَ الْكَلَامُ وَالْجَدَلُ وَكَثْرَةُ الْقِيلِ وَالْقَالَ كَمَا قَالَ أَحَدُهُمْ :

وَلَمْ نَسْتَفِدْ مِنْ بَحْثِنَا طَوِيلَ عَمْرِنَا سِوَى أَنْ جَمَعْنَا فِيهِ قِيلَ وَقَالُوا
فِيهِتُمُونَ بِالْكَلامِ وَالنَّظَرَ وَلَا يَهْتُمُّونَ بِالْعَمَلِ ، مَعَ أَنَّ غَايَةَ الْعِلْمِ الْعَمَلُ ، كَمَا يَقُولُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
يَهْتَفُ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ

وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَمَقِّتُ وَيُبْغِضُ مَنْ يَقُولُ وَلَا يَعْمَلُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣] ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ ، أَمَّا أَنْ يَقُولَ وَيَتَكَلَّمَ وَلَا يَعْمَلُ فَهَذَا لَيْسَ مِنْ هَدْيِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَلِهَذَا
قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَأَكُمُ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨] ، وَيَقُولُ تَعَالَى :
﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] ، فَلَا بُدَّ مِنَ الْعَمَلِ .

وَلِهَذَا عِنْدَمَا يَسْمَعُ الْمُسْلِمُ السُّنِّيَّ الْحَدِيثَ عَنِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوْ الْآثَارَ الْمَرْوِيَّةَ عَنِ السَّلَفِ
الصَّالِحِ فَإِنَّهُ يَجِدُ فِي الْمَتَابَعَةِ وَالْإِقْتِدَاءِ وَالْإِتِّسَاءِ غَايَةَ الْجُحُودِ لِيُخْرِجَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ وَهِيَ الْقَوْلُ بِلا عَمَلٍ ؛ بَلْ يَجِدُ
فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَمِنْ أَهْمِهَا بَعْدَ الشَّهَادَتَيْنِ الصَّلَاةَ .

وَلِهَذَا تَجِدُ بَعْضَ الشَّبَابِ مَنْ لَا يَقُومُ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ وَيَشْتَغِلُ فِي جَدَلٍ وَنِقَاشٍ وَيَسْهَرُ اللَّيْلَ فِي نِقَاشٍ فِي رَأْيِهِ أَنَّهُ
يَنْتَصِرُ بِهِ لِلدِّينِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ثُمَّ يَنَامُ عَنِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَيَدَاوِمُ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَهَذِهِ مَصِيبَةٌ عَظِيمَةٌ جَدًّا ، الْمُسْلِمُ يَعْنِي
بِالْعَمَلِ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، بِعِبَادَةِ اللَّهِ ، بِامْتِثَالِ أَمْرِ اللَّهِ ، بِالْإِقْتِدَاءِ بِرَسُولِ اللَّهِ ، بِأَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَيَدِمُ النَّظَرَ وَيُكْثِرُ الْقِرَاءَةَ فِي سِيرَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَفِي سِيرَةِ أَصْحَابِهِ وَيَجْتَهِدُ فِي التَّشَبُّهِ بِهِمْ ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ
كَذَلِكَ فَهَذَا خَطَرٌ عَظِيمٌ .

وَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَسْتَشْعِرَ خَطَرَ هَذِهِ الصِّفَةِ صِفَةِ الْخُلُوفِ وَهِيَ أَنْ يَقُولَ مَا لَا يَفْعَلُ « يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » ،
بَلْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ مُوَافِقٌ لِفَعْلِهِ ، وَمَنْطِقُهُ مُوَافِقٌ لِبَاطِنِهِ ، وَقَالِبُهُ مُوَافِقٌ لِقَلْبِهِ ، يَجْتَهِدُ فِي ذَلِكَ ، وَلَا يَكُونَ مِنْ
أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ « يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ » .

ذَكَرْتُ أَنَّ أَهْلَ الْكَلَامِ الْبَاطِلِ هَذِهِ مِنْ صِفَاتِهِمْ ؛ الْقَوْلُ وَالْبَحْثُ وَالنَّظَرُ ، يَعْنِي عَلَى سَبِيلِ الْمَثَالِ : تَجَدُّهُ يَتَحَدَّثُ فِي

محاضرات وكتب ونحو ذلك عن الإسلام والانتصار للإسلام ومحاسن الدين ويدافع عنه ونحو ذلك ؛ لكنه يُفَرِّط، يُفَرِّط في الأركان ربّما ، يُفَرِّط في الواجبات ، يُفَرِّط في الطّاعات ، ربّما لا يقيم الصّلاة أو يتهاون فيها ، فإذا كان يبيّن محاسن الدين للنّاس لابد أن يكون من أسبق النّاس قياماً بالدين وبطاعة الله ، أمّا أن يكون قول بلا فعل فهذا يمقته الله تبارك وتعالى.

فينبغي لنا أن نختتم بهذا الأمر : أن يكون القول موافقاً للعمل ، والقول ليس أيّ قول ، بل يكون القول هو ما ثبت عن النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام ، لا بالبدع والأهواء والمحدثات.

فإذن من صفات الخُلُوف أنهم يقولون ما لا يفعلون.

أما الصفة الثانية فهي قوله : « وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ » ؛ هذا فيه إشارة إلى فساد مصدر التّلقّي عندهم ؛ لأنّ صاحب السّنة مصدر التّلقّي عنده كما تقدّم الأخذ بالسّنة ، يفعل ما يؤمر به ، أمّا هؤلاء يفعلون ما لا يؤمرون ، فمصدر التّلقّي عندهم فاسد ، لم يؤمر بالأمر ، لم يأت فيه نص لا في الكتاب ولا في السّنة فيفعله ويتعبّد لله تبارك وتعالى به ، إمّا بناءً على رأيه أو على عقله أو على وجدّه أو على ذوقه أو على قصص وحكايات أو منامات أو ادّعاءات مثل ما يدّعي بعض المتصوّفة يقول: "حدثني قلبي عن ربي" أو نحو ذلك ، فهؤلاء كلهم ينطبق عليهم قوله: «ويفعلون ما لا يؤمرون» ، ولا يسلم من هذه الصّفة إلا من يتّبع الأمر ويفعل بما أمر به ويكون من أهل — ما تقدم معنا — الأخذ بالسّنة والاقتداء بالأمر، لا يسلم من هذه الصّفة إلا من كان كذلك ، ومن سواهم لم يسلم ؛ بل يكون وصفاً لازماً له فعُلّ ما لم يؤمر حتى يدع الأهواء ويترك البدع والمحدثات ، يدعها تماماً اتّباعاً للرّسول عليه الصّلاة والسّلام واقتداءً به . فهذه الصّفة الثانية «ويفعلون ما لا يؤمرون».

هنا أوّلاً أن أتبّه نفسي وإخواني إلى أمر مهم نأخذه من هذا الحديث العظيم وهو : أنّه ينبغي للمسلم أن يعرف السّنة وصفاتها وعلاماتها ويدرس ذلك دراسةً جيّدة ليعمل بها ، وينبغي له أيضاً في الوقت نفسه أن يعرف البدعة وصفاتها وأهلها حتى يحذرهما ، كما كان الصّحابي الجليل حذيفة بن اليمان — وقد ثبت كلامه في صحيح البخاري — أنه كان يقول: ((كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةً أَنْ يُدْرِكَنِي)) ، المسلم يعرف الشّرّ وسبله وطرقه حتى يحذرهما ويتقها .

تعلّم الشّرّ لا للشّرّ ولكن لتوقّيه
فإن من لم يعرف الشّرّ من النّاس يقع فيه

فهنا عرّف النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام بصفات أهل الخير وعلاماتهم ، وعرّف بصفات أهل الشر وعلاماتهم ، ولهذا منه عليه الصّلاة والسّلام نصيحة للأمة وإعذار وإقامة للحجة والمعدرة . نصحبهم ببيان ذات وعلامات أهل الخير وصفات وعلامات أهل الشر . فالمسلم ينظر في علامات أهل الخير ويتدبرها ويتأملها تأمّلاً جيّداً ويتبسّر فيها ثم يقتدي بهم ، وأيضاً يعرف علامات أهل الشّرّ ويتفقّد نفسه وينظر في حاله ، هل فيه شيء من ذلك ؟ فإن كان فيه فليجتهد في إبعاده عن نفسه ، وإن كان سالماً فليحمد الله تبارك وتعالى ويسأله الثّبات.

هذا من خلال الحديث العظيم الذي رواه مسلم في كتابه الصّحيح في كتاب الإيمان ، وأنا أدعوكم إلى مزيد من

النَّظَر والتَّأَمُّل في هذا الحديث ودراسته وحفظه ومراجعته في صحيح مسلم في كتاب الإيمان ومراجعة شروح أهل العلم لهذا الحديث ، فهو حديث عظيم عن النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفيه بيان لما سبق وهو مفهوم السَّلَفِيَّة ، وقد آثرتُ أن أنطلق في بيان هذا المفهوم من خلال هذا الحديث .

وَأَسْأَلُ اللهَ -جَلَّ وَعَلَا- بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى وصفاته العُلْيَا أن يوفِّقَنَا جَمِيعًا لِلْعَمَلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ الْعَظِيمِ ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا جَمِيعًا الْإِتِّسَاءَ بِالنَّبِيِّ الْكَرِيمِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَالْأَخْذَ بِسُنَّتِهِ وَالْإِهْتِدَاءَ بِهَدْيِهِ ، وَأَنْ يَعِيزَنَا مِنْ أَنْ نَكُونَ مِمَّنْ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ .

وَأودُّ أن أختم هذه الكلمة بقراءة كلامِ لابن القيم رحمه الله في مختصر الصَّوَاعِق ، وأنا أختصر كلامه لضيق الوقت، في مختصر الصَّوَاعِق في صفحة خمسمائة وواحد وعشرين قال رحمه الله:

((لهم علامات)) أي لأهل السُّنَّة ، لأنه قبل هذا نقل نقلاً مطوّلاً عظيماً جداً لو كان في الوقت سعة لقرأته ، لأبي المظفر السمعاني ، قال أبو المظفر في ضمن كلامه: ((فإن قال قائل: أنتم سمَّيتم أنفسكم أهل السُّنَّة وما نراكم في ذلك إلا مدَّعين؛ لأنَّا وجدنا كل فرقة تتحلل أتباع السُّنَّة وتنسب من خالفها إلى البدعة، وليس على أصحابكم منها سمة وعلامة أنهم أهلها دون من خالفها من سائر الفرق ، وكلنا في انتحال هذا اللَّقب شركاء متكافئون ولستم بأولى بهذا اللَّقب إلّا أن تأتوا بدلالة ظاهرة من الكتاب والسُّنَّة أو من الإجماع المعقول ... الأمر كما زعمتم ، لا يصحُّ لأحد دعوى إلا ببيّنة عاجلة أو بدلالة ظاهرة من الكتاب والسُّنَّة وهما لنا قائمتان بحمد الله .. إلى أن قال : ثم نظرنا فرأينا فرقة أصحاب الحديث لها أطلب -أي للسُّنَّة- وفيها أرغب ولها أجمع، ولأصحابها أتبع ، فعلمنا يقيناً أنهم أهلها دون من عداهم من جميع الفرق)) ، ثم ذكر مثال بديع قال : ((فإنَّ صاحب كل حرفةٍ أو صنعة إن لم يكن له دلالة وآلة من آلات تلك الحرفة ثم ادَّعى تلك الصنعة كان في دعواه مبطلاً .. إلى أن قال: وأهل الحديث كذلك، لما ادَّعوا الحديث عملوا به واشتهروا به وتمسكوا به وصاروا من أهله)) .

ابن القيم لما ذكر هذا الكلام قال بعده: ((ولهم علامات)) يعني لأهل الحديث ، فذكر علامات كثيرة ينبغي أن نرجع إليها في الكتاب وأن نتأملها ، يقول:

((منها: أنَّ أهل السُّنَّة يتركون أقوال النَّاس لها، وأهل البدع يتركونها لأقوال النَّاس -يعني يتركون السُّنَّة لأقوال النَّاس- ومنها: أنَّ أهل السُّنَّة يعرضون أقوال النَّاس عليها - أي على السُّنَّة- فما وافقها قبلوه وما خالفها طرحوه ، وأهل البدع يعرضونها على آراء الرِّجال فما وافق آراءها منها قبلوه وما خالفها تركوه وتأولوه .

ومنها: أنَّ أهل السُّنَّة يدعون عند التنازع إلى التَّحَاكُم إليها دون آراء الرِّجال وعقولهم ، وأهل البدع يدعون إلى التَّحَاكُم إلى آراء الرِّجال ومعقولاتهم.

ومنها: أنَّ أهل السُّنَّة إذا صحَّت لهم السُّنَّة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يتوقفوا عن العمل بها واعتقاد موجبها على أن يوافقها موافق ، بل يبادرون على العمل بها من غير نظرٍ إلى من وافقها أو خالفها)) .

ثم نَقَلَ عن الشافعيِّ في ذلك ، ثم قال: ((ومنها: -أي من علاماتهم- أنهم لا ينتسبون إلى أيِّ مقالةٍ معيّنة ولا إلى شخصٍ معيّن غير الرِّسُول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فليس لهم لقبٌ يُعرفون به ولا نسبة ينتسبون إليها إذا انتسب

سواهم إلى المقالات المحدثّة وأربابها ، كما قال بعض أئمة السُّنة وقد سُئل عنها فقال : السنة ما لا اسم له سوى السنة ، وأهل البدعة ينتسبون إلى المقالات تارة كالقدرية والمرجئة، أو إلى القائل تارة كالهاشمية والاضطرابية، أو إلى الفعل تارة كالخوارج والرّوافض، وأهل السُّنة بريئون من هذه النسب كلها، وإنما نسبتهم إلى الحديث والسُّنة. ومنها: أنّ أهل السُّنة إنما ينصرون الحديث الصّحيح والآثار السّلفية، وأهل البدع ينصرون مقالاتهم ومذاهبهم (...)) إلى آخر كلامه .

لا يزال لكلامه بقية وهو كلام عظيم يحتاج إلى نظر أطول وتأمل وشرح وبُحث . أسأل الله عزّ وجل أن يوفقنا إلى إعادة النّظر فيه وقراءته. وأدعو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن يوفقنا وإيّاكم لما يحب ويرضى، وأن يعيننا وإيّاكم على البرِّ والتّقوى ، وأن يجعلنا وإيّاكم هداة مهتدين ، من الذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه. والله أعلم، وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمّد .

